استجابة الدعاء ... رؤية جديدة

الشيخ الدكتور طلال الحسن

www.aklamona.com

تعرّض القرآن الكريم والسنة الشريفة لموضوعة الدعاء، واعتنيا به عنايةً فائقةً، وفي ضوء ذلك كتب أعلام الفريقين في حقيقة الدعاء وأسراره وضوابطه وشروطه، وقد حاول الكثير منهم التعرّض إلى الإجابة عن إشكاليةٍ ذات جذورٍ تاريخيةٍ عميقةٍ ترتبط بعدم وقوع الاستجابة الفعلية للكثير من أدعية المسلمين والمؤمنين في حين أنَّ القرآن يُصرّح في أكثر من موردٍ بوقوع الاستجابة حال تحقّق الدعاء، كما جاء صريحًا في قوله تعالى:{**وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ**} (غافر: 60)، وقال تعالى:{**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ**} (البقرة: 186)، فقوله تعالى:{**ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**}، وقوله:{**فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ**}، واضحان وصريحان في تحقيق الاستجابة في الدنيا بنحوٍ لا يقبل الشكّ، فهو سبحانه يعد السائلَ له بالاستجابة، ولا يُحتمل في حقّه سبحانه أن يُخلف وعده، وهذا أمرٌ محلّ وفاقٍ بين المسلمين، من أنّه سبحانه بمقتضى علمه وحكمته وقدرته المطلقة قد أوجب على نفسه الوفاء بالوعد، وإلّا لزم التشكيك بعشرات الوعود الإلهيّة للمؤمنين الصالحين بالجنّة والرضوان والنعيم الأُخروي.

وفي ضوء ذلك يفرض السؤالُ الواقعي نفسه عن التبرير الشرعي والمنطقي لعدم استجابة الكثير من الأدعية للمؤمنين، حتى الصالحين منهم، ولا يكاد مسلمٌ أو مؤمنٌ يخلو من ذلك، فكلُّ واحدٍ منهم عاش مرارة عدم استجابة أدعيةٍ في أعسر الأمور التي مرّ بها، والتي قد تنعكس سلبًا على طبيعة العلاقة مع الله تعالى، فالإنسان ماهويٌّ ومأنوسٌ بالمادّيّات.

هنا توجّه الأعلام إلى الكشف عن أسرار الدعاء؛ للبحث عن إجابةٍ واضحةٍ ودقيقةٍ عن أمرٍ لا يُمكن إنكارُه، وهنا اختلفوا في الأجوبة، على هذا النحو:

- من يقول إنّ عدم استجابة الدعاء كاشفٌ عن وقوع خللٍ في نيّة السائل أو في عدم تحقيقه للشروط المطلوبة، كالوفاء بعهد الله، أو أن لا تكون متبوعةً بمعصية، كما في الأخبار[1].
- ومن يقول بأنّ الشروط الملزم بتحقيقها الداعي ليست مناطًا كافيًا في تحقيق الاستجابة، وإنّما لابد أن يكون الدعاء مستوفيًا لشروطٍ أُخرى، والتي من أهمّها عدم تقاطعه مع المخطّطات الإلهية، فالمسلم المؤمن الصالح قد يكون متوفّرًا على تمام شروط استجابة الدعاء، وهو مستحقٌ للاستجابة، ولكنّ في استجابة دعائه مخالفةٌ للمصلحة العامّة التي تتعلّق بالآخرين، أو فيها مخالفةٌ لمصلحته نفسه على المدى البعيد.
- أو أنّ الأدعية كلّها مستجابةٌ، ولكنَّ عالَمَ تحقّق الاستجابة عامّ، بمعنى أنه قد يحصل في الدنيا وقد يحصل في الآخرة، تبعًا للمصالح الصغرى الخاصّة بالداعي أو الكبرى الخاصّة بالخلق

وغير ذلك من الأجوبة والتبريرات التي تبقى عاجزةً عن لجم عشرات الأسئلة التي تنقدح في نفس الداعين، فضلًا عن كون هذه الرُّزم من الشروط لا يحكي منها شيء من ظاهر الآيتين[2].

الرؤية الجديدة لاستجابة الدعاء

إنَّ السؤال الذي نطرحه: هل هنالك رؤية أُخرى تفسّر لنا هذه الجدلية، وتكشف لنا عن عدم وجود تنافٍ بين الوعد بالاستجابة وبين عدم تحقّق تلك الاستجابة على مستوى الظاهر؟

والجواب عن ذلك يتشكّل من أمرين:

- **الأمر الأول**: يمكن القول بأنَّ النظر الأوّلي لله تعالى إنَّما يكون للآخرة، فهي الباقية، وأمّا عالم الدنيا فمنظور له بالعرض، أيّ بما هي مزرعة للآخرة، وقد قال تعالى:{**وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**} (العنكبوت: 64)، وذيل الآية يشير إلى مشكلةٍ خطيرةٍ تسبّبت في تحويل النظر البشري إلى الدنيا قبل الآخرة، وهذه المشكلة تكمُن في عدم العلم:{**لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**}، أي: لأنَّهم لا يعلمون فلا يصدِّقون أنَّ هذه الحياة الدنيا لهوٌ ولعبٌ، وأنّ الدار الآخرة هي الباقية، ولذلك فهم عندما يتوجّهون بالأدعية الخاصة بالموارد الدنيوية يصبّون نظرهم على الدنيا ويتناسون الآخرة، ويظنّون بأنّهم في جميع أدعيتهم لا يخالفون المصلحة الأخروية، فالفقير يدعو بزوال فقره، والمريض يدعو بزوال مرضه، والسجين يدعو بفكّ أسره، والغائب يدعو بانتهاء غربته، وهكذا في الموارد الأُخرى، وهي أمور لا تبدو سلبية في ظاهرها، ولكنّهم في العادة لا ينظرون لسعادتهم الأخروية، ومدى تأثّر تلك السعادة فيما لو تحقّقت الاستجابة لكلّ دعاءٍ يدعو به المؤمن! ولذلك نجد بعض الأنبياء عليهم السلام يقدّمون درسًا عظيمًا في ذلك، حيث يعرّفوننا بأنّ العمل الصالح، ومنه الأدعية، قد تكون صالحةً في

1- انظر: تفسير القمّي، علي بن إبراهيم القمّي: ج1 ص46؛ أصول الكافي، للشيخ الكليني: ج2 ص271 ح14.

2- انظر: الميزان في تفسير القرآن، للسيّد العلّامة محمد حسين الطباطبائي: ج 2 ص 16.

الظاهر ولكنّها غير مرضيّةٍ لله تعالى، كما لو دعونا لفقيرٍ معيّنٍ بالغنى، ولمريضٍ معيّنٍ بالشفاء، أو دعونا لشخص بإطالة عمره، فهذه الأدعية كما تبدو من ظاهرها حسنة وصالحة، ولكنّها قد لا تكون مرضيّةً لله تعالى، ولذلك نجد النبيَّ سُليمان عليه السلام يقول:**{وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ}** (النمل: 19)، انظر وتأمّل في قوله:**{وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ}**، فليس كلّ صالح عندنا، في نظرنا وعرفنا، مرضيًّا لله تعالى، كما هو الحاصل لكثيرٍ من الناس في أدعيةٍ غير مسؤولةٍ منهم، يظنّون أنّها صالحةٌ ومقبولةٌ، كما يدعو البعض مخاطبًا ربَّه في غيبوبةٍ من الوعي وفي لزوم التقوى: إلهي لِمَ هذا الطفل أعرج أو أعور أو أعمى أو أخرس؟ ثمّ يقترح على الله تعالى معالجته، وكأنَّ الله تعالى غافلٌ عنه! وأنّه الوحيد الملتفت لذلك الطفل! وغير ذلك من عشرات بل مئات الموارد التي تقع للناس بنحو من الغفلة وقلّة التفقّه في الدين وأحيانًا من قلّة الوعي بل وقلّة التقوى.

- **الأمر الثاني**: إنَّ استجابة الدعاء الحتمي إنّما يكون فيما فيه حفظ السعادة الأخروية حصرًا، لأنّها هي المنظورة أولًا وبالذات لله تعالى، العليم الخبير القدير، وليست الدنيا كما هو حال النظر الأوّلي للإنسان القاصر الجهول بالمصالح، وعليه فمع عدم وجود تنافٍ في الاستجابة لأمورٍ دنيويةٍ مع حفظ السعادة الأخروية يمكن الاستجابة لذلك الأمر الدنيوي، وأمّا مع وجود أدنى تنافٍ للأمر الدنيوي مع حفظ السعادة الأخروية فمن المحال تحقيق الاستجابة، ولو افترضنا تحقيق الاستجابة مع التقاطع أو القطيعة الأخروية فذلك هو الشقاء بعينه، فالشقاء الظاهري الذي يعيشه البعض نتيجة عدم الاستجابة لدعائه يقابله شقاءٌ آخر في الاحتمال الآنف، وهو الشقاء بالاستجابة نفسها؛ لأنّها قدَّمت حظًّا دنيويًّا زائلًا على الحظّ الأخروي الباقي[1]، وهذا الأمر قد يقع لبعض المسلمين الذين تعلَّقت قلوبهم بالدنيا، وقد قال تعالى:**{فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ}** (البقرة: 200)، ولذلك لابدَّ أن يفهم ويتوجّه الإنسان المؤمن إلى أن يكون في دعائه طالبًا السعادة الحقيقية، وهي الكامنة ذاتًا في النعيم الأُخروي، وليس في زخارف الدنيا، وهذا ما كان النبيّ إبراهيم الخليل عليه السلام مُلتفتًا له، فقد حكى القرآن الكريم قوله:**{وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيّاً}** (مريم: 48)، وفي ذلك يقول السيد العلّامة: (وعد باعتزالهم والابتعاد منهم ومن أصنامهم؛ ليخلو بربه ويخلص الدعاء له؛ رجاء أن لا يكون بسبب دعائه شقيًّا، وإنما أخذ بالرجاء؛ لأنّ هذه الأسباب من الدعاء والتوجّه إلى الله ونحوه ليست بأسبابٍ موجبةٍ عليه تعالى شيئًا، بل الإثابة والإسعاد ونحوه بمجرد التفضل منه تعالى، على أنّ الأمور بخواتمها، ولا يعلم الغيب إلّا الله، فعلى المؤمن أن يسير بين الخوف والرجاء)[2].

حقائق مهمّة

الحقائق المهمّة التي ينبغي الالتفات لها:

- **الحقيقة الأولى**: ضرورة الالتزام بالدعاء، فما تقدّم لا يعني الكفّ عن الدعاء، وقد قال تعالى:**{قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً}** (الفرقان: 77)، فالعناية الإلهية والاهتمام الربّاني رهنٌ بالدعاء، بل علينا أن ندعوه في كلّ صغيرةٍ وكبيرةٍ، وقد ورد في الخبر عن سيف التمّار أنّه سمع الإمام جعفر الصادق عليه السلام يقول: (**عليكم بالدعاء؛ فإنّكم لا تتقرّبون بمثله، ولا تتركوا صغيرةً لصغرها أن تدعوا بها، إنّ صاحب الصغار هو صاحب الكبار**)[3]، وعليه: فلا يقال بأنّ حصر الاستجابة بما يوافق السعادة الأخروية يكون مانعًا من

1- وهو ما أَلْفَتَ النظر إليه الإمام علي زين العابدين عليه السلام وهو يتحدّث عن الأدعية المستجابة في الدنيا وفيها حظّ دنيوي، حيث يقول: (**أَللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى حُسْنِ قَضَائِكَ، وَبِمَا صَرَفْتَ عَنِّي مِنْ بَلَائِكَ، فَلاَ تَجْعَلْ حَظِّي مِنْ رَحْمَتِكَ مَا عَجَّلْتَ لِي مِنْ عَافِيَتِكَ فَأَكُونَ قَدْ شَقِيتُ بِمَا أَحْبَبْتُ وَسَعِدَ غَيْرِي بِمَا كَرِهْتُ، وَإِنْ يَكُنْ مَا ظَلَلْتُ فِيهِ أَوْ بِتُّ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الْعَافِيَةِ بَيْنَ يَدَيْ بَلاء لاَ يَنْقَطِعُ، وَوِزْر لاَ يَرْتَفِعُ فَقَدِّمْ لِي مَا أَخَّرْتَ وَأَخِّرْ عَنِّي مَا قَدَّمْتَ فَغَيْرُ كَثِير مَا عَاقِبَتُهُ الْفَنَاءُ، وَغَيْرُ قَلِيل مَا عَاقِبَتُهُ الْبَقَاءُ. وَصَلِّ عَلَى مُحَمَّد وَآلِهِ**). الصحيفة السجّاديّة، إملاء سيدِ الساجِدِين الإمام عَلِيِّ بْن الْحُسَين زَيْنِ العَابِدِينَ (ع): ص: 89 - 90، الدعاء الثامن عشر.

2- الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج 14 ص 61.

3- وسائل الشيعة، للشيخ الحرّ العاملي: ج 7 ص 32، ح 1، باب: (استحباب الدعاء في الحاجة الصغيرة).

الدعاء.

- **الحقيقة الثانية**: ينبغي أن يفهم ويُحمل الحثّ الأكيد على الأدعية وديمومتها على توطيد وترسيخ العلاقة مع الله تعالى، فالدعاء عبادةٌ، بل هو مخّ العبادة، كما في الأخبار[1]، وأما مقدار الاستجابة منها فمقرونٌ بما يوافق حفظ السعادة الأُخروية.
- **الحقيقة الثالثة:** على المؤمن الداعي أن لا يتأثّر بعدم استجابة دعاءٍ له، ولو كان في مسيس الحاجة لذلك؛ لأنّ ما يستحق التأثّر له هو كلّ ما يتعلّق بالآخرة، ففيها الفوز العظيم، وذلك هو الفرج العظيم[2]، كما فيها الخسران المبين:{**إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ**} (العصر: 2)، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العلي العظيم.
- **الحقيقة الرابعة:** حيث إنّ الدعاء عبادةٌ حقيقةٌ خالصةٌ فإنّه بنفسه، وبغضّ النظر عن الاستجابة لمدخوله، فيه مصلحةٌ عظيمةٌ ترتبط بحفظ السعادة الأخروية، بل بالارتقاء بتلك السعادة، بمعنى أنّ كلّ دعاءٍ صالحٍ هو رافدٌ جديدٌ لإرواء تلك السعادة الأُخروية، فيكون الداعي غنيًّا بأدعيته، في الدنيا حين الاستجابة لها، وفي الآخرة بشكلٍ مطلق؛ لأنّها تصبّ في حفظ ونماء السعادة الأخروية، وبذلك يتّضح أن نكون مع الأدعية المتواصلة خيرٌ لنا من أن نكون خلوًا منها[3]، وحذار أن يكون الدعاء طريقًا وملاذًا لنا عند وقوع البلاء حصرًا، وإنّما ينبغي ديمومته، في السعة والضيق، وفي السرّ والعلن، وقد ورد في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وآله: (تعرَّف إلى الله عزّ وجلّ في الرخاء يعرفك في الشدّة)[4].
- **الحقيقة الخامسة**: أن يلتفت المؤمن لآخرته، فيُكثر من الدعاء في ذلك، فيركّز على طلب العفو والمغفرة، واللحاق بالصالحين، وما أجمله من دعاء عظيم لنبي الله يوسف عليه السلام:{**تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ**} (يوسف: 101)، وما أجمل ذلك الدعاء الجامع المانع، الوارد في قوله تعالى:{**وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**} (البقرة: 201)، والدعاء الوارد في قوله تعالى:{**وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَاناً نَّصِيراً**} (الإسراء: 80).

هذا تمام الكلام في الكشف عن سرّ من أسرار استجابة الدعاء، ولله سبحانه وحده الفضل والمنّة في ذلك من قبلُ ومن بعدُ:{**وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**} (يونس: 10).

1- ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: (**الدعاءُ مخُّ العبادة، ولا يَهلكُ مع الدعاءِ أحد**). الدعوات، لقطب الدين الراوندي: ص 18 ح 8.

2- حقيقة الفرَج العظيم تكمن في الخلاص من ظلمة الدنيا إلى لقاء الله تعالى.

3- جاء في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: (يدخلُ الجنةَ رجلانِ، كانا يعملان عملًا واحدًا، فيرى أحدُهما صاحبَهُ فوقَهُ، فيقول: يا ربِّ بما أعطيتَهُ وكان عملُنا واحدًا؟ فيقول الله تبارك وتعالى: "ألني ولم تسألني"). عدّة الداعي ونجاح الساعي، أحمد بن فهد الحلّي: ص42.

4 ـ من لا يحضره الفقيه، للشيخ الصدوق: ج 4 ص 412 ح 5900.